

Barbara Drieskens, Franck Mermier and Heiko Wimmen (eds.).
Cities of the South: Citizenship and Exclusion in the 21st Century
 (London: Al-Saqi, 2007). 330 p.

مدن الجنوب:

المواطنة والتهميش في القرن الحادي والعشرين

منى فواز^(*)

أستاذة مساعدة، برنامج الدراسات العليا في تخطيط وسياسة وتصميم المدن،
 الجامعة الأميركية في بيروت.

للأبحاث نُظِّمت خلال الفترة ٢٠٠٥ – ٢٠٠٦، وجمعت عدداً من الباحثين الراغبين في إطلاق حوار بين الجنوب والجنوب حول قضايا العولمة والمواطنة في الجنوب الحضري^(١). يبدأ الكتاب وينتهي بدراستين نظريتين تسعيان إلى تأسيس مداخل نظرية مشتركة، وتعيين أوجه التماثل عبر السياقات.

يعي المحررون منذ البداية وعورة المسار الذي ينتظر مشروعهم: كيف يمكن للمرء تحديد الحضري ووضع الحالي، وأين يمكن رسم حدود الجنوب في جغرافية العصر الراهن؟ لمواجهة هذه التحديات، يقترح المحررون مقارنةً للبحث مدعومة بالمبررات، تبدأ بدراسات حالات موثقة تشكّل الأساس الذي تقوم عليه

كتاب مدن الجنوب، كما يوحي اسمه، هو مجموعة من الفصول الهادفة، استناداً إلى ما يقول المحررون في مقدمة الكتاب، إلى إطلاق نظريات جديدة حول مدن الجنوب عن طريق غرس الأفكار المعاصرة المتعلقة بالمدينة في الخبرات المحلية الراسخة. وبصورة أكثر تحديداً، الهدف من الكتاب هو وضع التعبيرات الرائجة في الأجواء الأكاديمية، كالمواطنة والعمولة والكوزموبوليتانية (Cosmopolitanism)، ضمن سياقاتها عن طريق توثيق الكيفية التي تتجسد بها التعبيرات المذكورة في الأجواء الحضرية المادية في جنوب الكرة الأرضية.

يضم الكتاب اثنتي عشرة دراسة جاءت حصيلة سلسلة اجتماعات مخصصة

mf05@aub.edu.lb.

(*) البريد الإلكتروني:

(١) جرت الاجتماعات تحت إشراف مؤسسة هانرش بول الألمانية والمعهد الفرنسي للشرق الأوسط. وهنا تجدر الإشارة بشكل خاص إلى المؤتمر الذي عقد في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥ في الجامعة الأميركية في بيروت وإلى المجموعات المشاركة في المؤتمر العالمي لدراسات الشرق الأوسط الذي عقد في عمان، عام ٢٠٠٦.

العامية ومنظومات الأمن الخاصة في فرض هذه التقسيمات وتقويتها. باختصار، يرسم تاريوس كوزموبوليتانية مقتضبة، غالباً ما تُترجم فيها حركة الناس إلى تفاعلاتٍ ثقافية ضعيفة.

في الفصل الثاني، تبحث ليلي فينيال (Vignal) في نشوء «مجتمع المستهلك الحضري العالمي» في الشرق الأوسط، وبنّت بحثها على أساس دراسة لثلاث حالات (بيروت والقاهرة ودمشق) حيث وثقت تأسيس سلاسل مطاعم الوجبات السريعة ومراكز التسوق الضخمة، وانتشار السلع المصنعة بموجب امتيازات. وتبين فينيال أن المناطق الغنية كانت هدفاً لإنشاء مرافق التسوق الباذخة، في حين انتشرت السلع التي تحمل علامات تجارية في كل أنحاء المدينة في محاولة للاستيلاء على القطاعات المختلفة لأسواق المستهلك.

وتتوصل فينيال إلى النتائج نفسها التي توصل إليها تاريوس: فانتشار فضاءات جديدة خاصة بالمستهلك يعزز التقسيمات الحضرية الراهنة عن طريق استهداف مناطق سكنية مترفة معينة، وعن طريق خلق تباينات اجتماعية إضافية بين من يمكنهم المشاركة في فضاءات المستهلك هذه ومن لا يمكنهم ذلك. لكن الكاتبة تلطف من وقع هذا التأكيد بالقول إن الحدود الفاصلة ليست صماء تماماً وإن المستهلكين المستهدفين يحتفظون مع ذلك بإرادتهم الفردية: على سبيل المثال، المتزهون من ذوي الدخل المتوسط يتعاطون مع مراكز التسوق الباذخة باعتبارها فضاءات مفتوحة/ عامة، ما يحرف هذه الأمكنة عن دورها الاستهلاكي الأساسي. وإضافة إلى ما

النظريات الجديدة حول مدن الجنوب. وضمن هذا التوجّه، يمكن تحديد أربعة مداخل باعتبارها القوى الأساسية التي تعيد تشكيل التطور الحضري المعاصر: الحركية المتسارعة للناس وللسلع؛ نشوء صيغ جديدة من أشكال الحكم؛ تكاثر فضاءات التهميش؛ الترويج لمتخيلات حضرية جديدة. تمثلت هذه القوى في الأجزاء الأربعة الرئيسية من الكتاب، ويضم كل جزء ثلاثة فصول. سأبدأ هذه المراجعة للكتاب بتلخيص كل جزء، ومن ثم سأعرض بعض الملاحظات حول المساهمات التي يقدمها الكتاب.

الجزء الأول من الكتاب، حركة المدن، يتناول تأثيرات تسارع حركية الناس والسلع في السياقات الحضرية.

في الفصل الأول، يتفحص الآن تاريوس (Tarius) الكيفية التي تعيد بها حركية السكان المتسارعة هيكلية المدن الأوروبية عن طريق فرض حدود إضافية داخل المدن، من جهة، وعن طريق إنشاء شبكات تواصل جديدة عبر العلاقات الاجتماعية التي تتحدى الحدود القومية وتربط بين المناطق البعيدة، من جهة أخرى. اختار تاريوس مدينة أليكانته (Alicante) في إسبانيا ومدينة صوفيا في بلغاريا كحالتين للدراسة، فوثق مسارات عدة مجموعات قومية في كل من المدينتين، ولاحظ كيف أثرت الممارسات المكانية للمهاجرين في المدينتين قيد الدراسة عندما خلقت هذه الممارسات منعزلاتٍ انسحب إليها المهاجرون الأغنياء بعيداً عن بقية السكان (المحليين الفقراء).

ويركّز تاريوس على دور السلطات

والأهم من ذلك كله؛ حكومة مركزية ترفض التخلّي عن سلطاتها لسواها. كما وتكشف الاستقصاءات التي قام بها الكتاب التأثيرات السلبية لسياسات الخصخصة، ما يجعل تأمين الخدمات المدنية الأساسية خاضعاً للقدرات الشرائية لا للأهلية الفعلية. ويركّز الكتاب على التأثيرات المكانية لهذه التوجّهات في شكل الحكم: إدامة التقسيمات التقليدية بين المناطق السكنية القانونية/المخالفة التي يُعاد صوغها حسب معيار قدرة الشراء.

في الفصل التالي، يصف مارك لافيرن (Lavergne) أشكال الحكم المدني في سياق الخليج العربي (الإمارات العربية المتحدة)، حيث لم يتم تبني نظام النماذج الديمقراطية الغربية (لا وجود للانتخابات، مثلاً). ويصوّر لافيرن، استناداً إلى العمل الميداني الذي أجراه في المدينة - الدولة دبي، التقسيمات الاجتماعية الحادة والتفاوت الاجتماعي الواسع النطاق القائم بين المجموعات السكانية المتعددة. لكنه يوضح أن على الرغم من غياب الأهلية الرسمية، فإن نموذج الحكم هذا (الريعي Rentier) يُبقي على مستويات عدة من المسؤولية. فمن جهة، يعتمد المواطنون على الشبكات الاجتماعية كمسارات لإيصال صوتهم إلى أسماع الحكام. ومن جهة أخرى، يقوم الأثرياء (لاسيما منهم المستثمرون) بدور مفتاحي في النجاح الاقتصادي للإمارات، وهم يعززون قوة هذا الدور للتأثير في صنع القرار السياسي.

الفصل الأخير من هذا الجزء يلقي الضوء على موقع آخر لممارسة الحكم المدني: يقدم ملحم شاؤول التنبئة الشعبية

سبق، تقول فينيال إن الوعي بوجود علامات تجارية أدنى مستوى، والعوامل الاقتصادية الصعبة التغيير، ومعوقات التوزيع (الموقع/إمكانية الوصول)، وعوامل القصور الصناعية (الصناعة الحديثة لا يمكنها تخديم جميع السكان)، كل ذلك يتحدى تأثيرات الشركات العالمية في عملية إضفاء التجانس. في الفصل الأخير من هذا الجزء، تتوسع دايان سنغرمان (Singerman) في شرح تأثير تخطيط المدن في مصر في زيادة الانقسامات في مدينة القاهرة، مستعيرة بعض المقاطع من الدراسة المنشورة في الكتاب الذي شاركت في تحريره والذي يتحدث عن هذه المدينة (Singerman and Amar, 2006) وسواء أكان ذلك التخطيط يتمثل في تشجيع الامتدادات الحضرية في الصحراء (كما في التجمعات السكنية المغلقة والمحروسة) (Gated Communities)، أم في إزالة مناطق المخالفات، أم في خصخصة الفضاء العامة، فإن النتيجة هي ذاتها: خطاب خائف يصور المدينة مكاناً خطراً ويشرعن المزيد من الانقسامات الحضرية، ما يعكس ضعف «الجهات العامة» في مصر.

الجزء الثاني من الكتاب، إدارة المدينة. يناقش شكل الحكم من ثلاث زوايا. تصف مريم كاتوس (Catusse) وآخرون الصعوبات التي تكتنف تطبيق اللامركزية الإدارية ضمن تقاليد الحكم المركزي في المنطقة العربية. ويكرّر الكتاب ما ورد في الأدبيات الكثيرة التي تتناول هذا الموضوع؛ فهم يصوِّرون صعوبات تطبيق اللامركزية المالية، ومعضلات ومكان قصور الانتخابات الديمقراطية،

جديدة من التطور الحضري الاستثنائي المؤقت يُجرّد فيها السكان من حقوقهم المدنية أو القانونية، ويحوّلون إلى مخلوقات لا مرئية لا يُسمَع صوتها. ولمواجهة هذه التوجّهات، يرى المؤلفان ضرورة عرض الأسس المنطقية التي تقف وراء إنتاج مثل هذه الفضاءات، والمشاركة في المبادرات الهادفة إلى مواجهتها من خلال دمج «السكان غير المرغوب فيهم» واعتبارهم سكاناً حضريين شرعيين.

ينتهي هذا الجزء بتوثيق معمّق قامت به مارينا كافالكانتي (Cavalcanti) لنوع أكثر تقليدية من الفضاء المهمّش: أحياء فافيللا (Favela) البرازيلية. حيث تصف كافالكانتي، استناداً إلى دراسة شاملة جرت في إطار أطروحة حول مدينة ريو، العلاقة بين الاعتراف العام بالفافيللا باعتبارها مناطق سكنية حضرية شرعية، وبين وصم هذه المدن بأنها مناطق ترويج المخدرات، وهما، كما تبين الكاتبة على نحو مقنع، حركتان متداخلتان أعادت صوغ ممارسات البناء والسكن للقائنين في هذه المناطق، وصوغ علاقة هؤلاء بالمدينة.

الجزء الرابع، تحيّل المدينة، يُظهر بوضوح العلاقة بين المدينة وبين الفضاءات الثقافية التي تعتاش على ممارسات المدينة. تتفخّص عائشة أونشو العلاقة بين التواريخ المتخيّلة والهويات الثقافية، من جهة، والممارسات الحضرية من جهة أخرى. وتبين أونشو، على أساس دراسة حالة تستكشف مواقف ووجهات نظر زوّار Miniaturk، وهي حديقة تراثية موجودة في اسطنبول تُعرض فيها نسخ مصغّرة عن ١٠٠ «عمل هندسي رئيسي»، أن الحديقة مدينة بنجاحها الفائت إلى

وأشكال الاحتجاج في الشوارع كمواقع للتأثير في الحكومة، وذلك من خلال دراسة حالة لحركة الاحتجاجات في لبنان عام ٢٠٠٥.

الجزء الثالث من الكتاب، فضاءات التهميش، هو أكثر أجزاء الكتاب تفصيلاً من الناحية النظرية، وقد يكون الأفضل من حيث استجابته لرغبة المحررين في إعادة تعريف مكوّنات المدينة في عصر العولمة. يبدأ هذا الجزء بمقطع يغلب عليه الطابع الفكري بقلم ميشيل أجيبه (Michel Agier) يسهب فيه الكاتب في الحديث عن العدد الكبير من اللاجئيين المشردين على نحو دائم في طول العالم وعرضه؛ أناس محصورون داخل مخيمات مؤقتة حيث يمكن أن يكونوا في أمان، لكنهم أيضاً تحت حراسة مشددة ومعزولون عن الممارسات الحضرية اليومية السوية. ويبيّن أجيبه ضرورة وضع نظرية بديلة لمخيم اللاجئيين، نظرية تتفهّم هذه المخيمات مكانياً باعتبارها مناطق سكنية شرعية في المدن التي تعيش هي ذاتها صيرورة دائمة من التحوّل. بعبارة أخرى، بنية المخيمات هي جزء لا يتجزأ من الإنتاج الحضري، وينبغي الاعتراف بهذه المناطق باعتبارها مناطق سكنية شرعية ضمن السياقات الحضرية الأوسع التي توجد ضمنها.

في الفصل التالي، يؤسس كلٌّ من انجن إيسين (Engin Isin) وكيم ريجيل (Kim Ruyiel) على ما أتى به أجيبه من حجج، ويوسّعان فئة الفضاءات المهمّشة التي يطلقان عليها اسم «الفضاءات المزرية»، ويقترحان تصنيفاً مفصلاً لهذه المناطق. فالحدود والمناطق المؤقتة والمخيمات، كما يرى المؤلفان، هي أشكال

متعددة من التوجّهات الحضريّة المعاصرة. كما أن وجود هذه الدراسات في عمل واحد يتيح للقارئ استنتاج أوجه تماثل مهمة عبر سياقات جغرافية ومقاييس متنوعة، لاسيما في سياق المدن العربيّة التي لم توف حقها من الدراسات. لكن هذه النصوص تبقى مع ذلك غير مترابطة بعضها مع بعض إلى الحد الذي يسمح بإجراء مقارنات فعلية. فالأمر لا يقتصر على التباعد الجغرافي للنصوص فحسب، بل إن موضوعاتها وركائزها المعرفية متباعدة أيضاً. وما يزيد من صعوبة الربط بين الحالات، التباينات في طبيعة النصوص التي تضم الملخصات ذات الطبيعة التأملية والمقالات الفكرية ودراسات الحالات، هذا بالإضافة إلى عدم تجانس نوعية الأبحاث التي تدعم تلك النصوص: فبعض تلك الأبحاث يقوم على أساس عمل ميداني متقن وشامل في حين يبدو بعضها الآخر مفتقراً نسبياً إلى قاعدة راسخة. وضمن هذا الإطار، يبدو الفصل الأخير الذي كتبه جان فرانسوا بايار (Jean-Francois Bayart) بمثابة الجسر الضروري الواصل بين طموحات المحررين واستجابات الكتاب. في هذا الفصل، يقترح بايار أفكاراً، أو بالأحرى عدسات مقرّبة مسلّطة على الفصول: التزامن التقريبي لدراسات الحالات، النقاط المشتركة في المقاربة المنهجية لهذه الدراسات (مقاربة التحليل من خلال ملاحظة الممارسات، بما فيها ممارسات الاستهلاك والتظاهرات السياسية)، وفهم المدينة باعتبارها مكاناً للقّاء والتهميش، والسلطة والإكراه في الوقت ذاته. وضمن توجّه مماثل، يقدم الفصل الافتتاحي، الذي كتبه بايار حول براديفم (Paradigm) المدينة، عدة مدخل

كونها توفر للمجموعات المهتمّة في سياقات أخرى، فرصةً للتماهي مع مخيال وطني مشترك وادّعاء الشعور بالانتماء إلى تراث وطني، بالتالي مواجهة تجارب التهميش اليومية. في الفصل الثاني من هذا الجزء، تتفحّص فيانانثي راو (Vyjayanthi Rao) نوعاً آخر من الفضاءات المُتخيّلة، وهي الفضاءات التي يخلقها وينشرها الرأسمال العقاري. وتبيّن راو، استناداً إلى البحث الذي أجرته في مدينة بومباي، حيث أتاح نزحُ الصنفة الصناعية عن المدينة الفرصة لمجموعة من المستثمرين الأثرياء كي يطوروا رؤيتهم للمدينة ويعززوها وينفذوها، تبيّن راو أن الفضاءات المُتخيّلة من هذا النوع تُعيد تنظيم المدينة على أسس تستجيب لطموحات المستثمرين بالمسكن الفخم وبالربح على حساب المجموعات السكانية المشردة غير المرغوب فيها ضمن الرؤية المذكورة. وتستند حجج راو، وهي حجج جديدة بالملاحظة، إلى عمل ميداني شامل وإلى رسوم توضيحية.

في الفصل الأخير من هذا الجزء، يبيّن فرانك ميرميه (Mermier) أن تنوع دور النشر التي أنشئت في بيروت بمرور الوقت، جعلت من بيروت «مختبراً أيديولوجياً وثقافياً» للعالم العربي بكامله، ما جعلها تساهم في صوغ المكان ودور المدينة في منطقتها. بعبارة أخرى، تطابق الفضاء العام لبيروت مع الفضاء العام للعالم العربي بكامله، وهو ما أدى إلى منح المدينة موقعاً راسخاً ودوراً في الشبكة الثقافية للمنطقة.

كما توجي الملخصات الواردة أعلاه، توفر دراسات الحالات توثيقاً ثرياً لأنواع

الكولونيالية (Singerman and Amar, 2006). فالعولمة، التي هلل لها الجميع، مؤهلة لتستوعب فقط أولئك الذين يناسب دخلهم وممارساتهم الثقافية الأجواء السياحية العالمية الخاصة بذوي الدخل المرتفع، في حين أن الامتزاج الاجتماعي، عند ذوي الدخل المنخفض غالباً ما يكون مصدراً للتوترات.

وضمن هذا السياق، لم يفلح الكتاب في إطلاق أفكار جديدة حول المدني أو الحضري (Urban)، لكنه يبقى مع ذلك مرجعاً جيداً للمهتمين بالاطّلاع على تجسّد التوجّهات العالمية في مدن الجنوب □

المراجع

- Chatterjee, Partha (2004). *The Politics of the Governed: Reflections on Popular Politics in Most of the World*. New York: Columbia University Press. (Leonard Hastings Schoff Memorial Lectures)
- Singerman, Diane and Paul Amar (eds.) (2006). *Cairo Cosmopolitan: Politics, Culture, and Urban Space in the New Globalized Middle East*. Cairo: American University Press.

نظرية لقراءة المدينة وفهمها في علاقتها التاريخية بالعولمة، وبذلك يقترح مدخلاً آخر يمكن فحص دراسات الحالات بالمقارنة به.

كلمة أخيرة، الكتاب يرسم لمدن الجنوب صورة متوقّعة ضمن المشهد الأكاديمي المعاصر. هناك مدن تزداد انعزاً على طول خطوط الدخل، وممارسات الاستهلاك (الخاصة بالسلع وتزجية أوقات الفراغ والخدمات الحضرية) والممارسات المكانية (الحركية، إلخ...).

كما وأن الخطوط الفاصلة لهؤلاء السكان المهمّشين؛ سواء أطلقنا عليهم السكان الفائضين أم البائسين أم غير المرغوب فيهم، تمتد أيضاً عبر سياقات الجنوب، بل إن الأساس المنطقي لتهميش هؤلاء يولّد أنواعاً جديدة من الأشكال الحضرية. وفي كل مكان أيضاً، تساهم السياسات الحضرية؛ سواء تمثّلت بصورة خصخصة تأمين الخدمات أو تطوير مخططات حضرية أو عدم وجود مثل هذه المخططات، في تقوية تلك التوجّهات، وهو ما يؤدي إلى تناسي الوعود بالمساواة التي ظهرت قبل عقود عند انحسار موجة